من شواهد النبوة :

المتنبئـــون

للأســـتاذ علي العماري

« تتمة »

وثالث الأسباب التي دفعت بعشائر المتنبئين وأتباعهم إلى الصبر والصدق في حروب المسلمين الطمع في الملك والرغبة في السيادة . ولقد عرف المتنبئون كيف يأكلون الكتف ، فهم إن فاتهم — إحكام الكذب في دعواهم لم يفتهم استمالة أقوامهم بما يطمعونهم فيه من ملك العرب . وهذا أمر قد استقام لكل المتنبئين ، فأما مسيلمة فقد ابتدأ أمره بأن كتب للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإني قد أشركت معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » فرد عليه النبي « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » فلما جاء كتاب الرسول أخفاه ، وكتب عنه كتاباً زعم أنه وصله بنبوت الشركة بينهما ، وأخرج ذلك الكتاب إلى قومه فافتتنوا به . وبهذا — إلى جانب ما قدمنا من أسباب — استطاع عدو الله أن يسخر هذه الآلاف المؤلفة في حرب مبيدة . وأما طليحة فقد ذكروا أن مما سجع به قوله « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » . وسواء أصحت هذه المقالة أم لم تصح ، فإنها تدلنا على كل حال على الفكرة التي كان يبثها طليحة في قومه ، وهي أنهم إنما يطلبون الملك . وسيبالونه . وسجاح ما كان لها أن تجرر وراءها سادات قومها من تميم ، ووجوه أخوالها من تغلب إلا بهذه الأمنية الجذابة : « إنما أنا امرأة من يربوع ، فإن كان ملك فهو لكم » إذن فقد كانت العصا السحرية التي أمسك بها هؤلاء المتنبئون هي التلويح بالملك والسيادة لهؤلاء العرب الظامئين إلى السلطان . ولقد ألم الرافعي رحمه الله في كتابه « إعجاز القرآن » ببعض هذه الأسباب التي شرحناها . قال بعد الكلام عن بعض المتنبئين : « على أنه لا اتباع له من غير قومه ، ولا يشايعه من قومه الا طائفة يستغفرون لأمره ، ويعطفون عليه جنبات الناس حتى يجمعوا له اخلاطا وضروبا ، وقد تبعوه وشعروا في ذلك حمية وعصبية ، وحدبا من الطباع على الطباع ، فهم في غنى عن نبوته وقرآنه ، وإنما رأيهم الحطار بالأنفس والأموال على ما تنزعهم إليه الطبيعة مقاربة لمن قارب صاحبهم ، ومباعدة لمن باعد ، وعسى أن يرد عليهم ذلك مغنما ، أو ينفلهم من غيرهم ، أو يجدي عليهم بالعزة والغلبة ، أو يكون لهم سبيل منه إلى التوثب ، أن صادفوا غرة ، وأصابوا مضطربا إلى غير ذلك مما تزينه الطمعة ، ويمزيه الغرور ، ويقصد إليه بالسبب الواهي ، وبالحادث الضئيل ، وبكل طائفة من الرأي وبقية من الوهم ، وتستوي فيه الشمال واليمين ، وتتقدم فيه الرؤوس والأرجل ، مبادرة لا يدري أيهما حامل وأيهما محمول »

يضاف إلى كل ذلك ما ذكره ابن خلدون من أن بعض هؤلاء المتنبئين وأنصارهم كان يطمع في النبوة ، فلما لم تجئه عاند قال في فصل بعد الكلام على الكهان : « ثم إن هؤلاء الكهان إذ عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد ، كما وقع لأمية بن أبي الصلت ، فإنه كان يطمع أن يتنبأ . وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم ، فإذا غلب الإيمان ، وانقطعت تلك الأماني آمنوا أحسن إيمان كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب ، وكان لهما في الفتوحات الإسلامية الآثار الشاهدة بحسن الإيمان » .

* * *

قلنا في المقال السابق إن التنبؤ في العصر العباسي كان جنونا ، فإن لم يكن فهو الحمق لا شك فيه ، وإنما دعانا إلى هذا القول أنا وجدنا جمهرتهم غير جادين في هذا الادعاء ، فلا أنصار ولا اتباع ولا غايات عظيمة يقصدون إليها ، كما كان هذا شأن أصحابهم السابقين ، ولذلك فإنا لا نلم بأخبارهم مؤرخين ، وإنما نلم بشيء منها فيه طرافة يستريح إليها الدارس ، ويستمتع بها القارئ ، فإن أخبارهم كما يقول صاحب العقد الفريد « حدائق مونقة ، ورياض زاهرة ، لما فيها من طرفة ونادرة ، فكأنها أنوار مزخرفة

أو حلل منشرة ، دانية القطوف من جانى ثمرتها ، قريبة المسافة لمن طلبها ، فإذا تأملها الناظر ، وأصغى إليها السامع ، رجدها ملهى للسمع ، ومرتعا للنظر ، وسكنا للروح ، ولقاحا للعقل ، وسميراً فى الوحدة ، وأنيساً فى الوحشة » وإنما كان الأمر كما يقول ابن عبد ربه لأن فى أخبارهم الغريب المطرب ، والطريف المعجب ، بل إن ادعاءهم النبوة نفسه كان مما يضحك الثكلى ، ويسرى عن المحزون ، لأنه اقترن بحمق وسخف . وحسبكم بقوم يفترون على الله الكذب ، ويزعمون أنه أرسلهم زورا وبهتانا ، دون أن يكمن وراء ذلك ما يكون كفاء لهذه الكذبة البلقاء ، ليس ببعيد عندى أن الأخباريين اختلقوا وتزيدوا ، وأرادوا مادة للسمر والتفكه فالتمسوها فى المجانين ، والحمق ، وفى هؤلاء . ولعل اختيارهم لهذا النوع كان اختياراً موفقا إلى حد بعيد . نعم روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون رجلا كلهم يدعى النبوة . ولكن نحن لا ننكر أن قوماً ادعوا النبوة كما أنا لا نسلم — كذلك — أن هذه الأخبار كلها وقعت بالفعل . ومهما يكن من شىء فإن أحق جانب بالنظر فى أخبار هؤلاء هو جانب الفكاهة والملحة . على أن أصحاب السمر لم يخلوا المتنبئين القدامى من لاذع نكاتهم . وما أشك فى أن قصة زواج مسيلمة بسجاح وأنه اختدعها عن نفسها وأمهرها بإسقاط صلاتين عن قومها ، ما أشك فى أن هذه القصة وضعها مازح مفحش خبيث .

أما أخبار متنبئى العصر العباسى فإنها تدلنا فى جملتها على أنهم كانوا على حظ عظيم من الحيلة وحسن التخلص أو هكذا أراد لهم الوضاع .

ادعى رجل النبوة فى عهد المهدى فأدخل عليه فقال له : أنت نبى ؟ قال نعم . قال : متى نبئت ؟ قال : وما تصنع بالتاريخ ؟ قال : فى أى المواضع جاءتك النبوة ؟ قال : وقعنا — والله — فى شغل ! ليس هذا من مسائل الأنبياء ، إن كان رأيك أن تصدقنى فى كل ما قلت فاعمل به ، وإن كنت عزمت على تكذيبى فدعنى أذهب عنك . فقال المهدى : هذا ما لا يجوز ؛ إذ كان فيه فساد الدين ، قال : واعجبا ! تغضب لدينك لفســـاده ، ولا أغضب أنا لفساد نبوتى ؟ ثم قال للمهدى : أحاكك فيما جاء به من قبلى من الرسل ، قال : رضيت ، قال أكافر أنا عندك أم مؤمن ؟ قال : كافر ، قال فإن الله يقول : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم » فلا تطعنى ولا تؤذنى ، ودعنى أذهب إلى الضعفاء والمساكين فإنهم أتباع الأنبياء ، وأدع الملوك والجبابرة فإنهم حطب جهنم . فضحك المهدى وخلى سبيله . ! !

وإذا كان هذا لجأ إلى آية من كتاب الله يستند إليها ويتخلص بها فإن غيره كان يعتمد على النكتة البارعة ، والأضحوكة الآخذة ، يتلمس بها الخلاص من قبضة الخليفة وبطشه ... أتى المأمون بإنسان تنبأ فقال له : ألك علامة ؟ قال نعم . علامتى أنى أعلم ما فى نفسك ! قال المأمون : قربت على ، ما فى نفسى ؟ قال : فى نفسك أنى كذاب ! قال : صدقت ، وأمر به إلى الحبس ، ثم أخرجه بعد أيام ، فقال : هل أوحى إليك بشىء ؟ قال : لا . قال : ولم ؟ قال لأن الملائكة لا تدخل الحبس ! فضحك المأمون ثم أطلقه .

وجىء بمتنبىء — مقيدا — إلى سليمان بن على فقال له : أنت نبى مرسل ؟ قال : أما الساعة فأنى مقيد . قال : ويحك ! من بعثك ؟ قال : أبهذا يخاطب الأنبياء يا ضعيف ، والله لولا أنى مقيد لأمرت جبريل أن يدمدمها عليكم . قال : فالمقيد لا تجاب له دعوة ؟ قال : نعم . الأنبياء خاصة إذا قيدت لم يرتفع دعاؤها .

ولا أدرى ما الذى حمل الأخباريين على أن يشقوا لكل متنبىء طريق النجـاة إن لم تكن الدعابة هى غايتهم ؟ ! على أنهم إذا أوقعوا أحدهم فى مكروه التمسوا الفكاهة فى ناحية أخرى من خبره . ادعى رجل النبوة فى زمن خالد بن عبد الله القسرى الوالى الأموى وعارض القرآن ، فأتى به خالد ، فقال له ما تقول ؟ قال : عارضت فى القرآن ما يقول الله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » فقلت أنا ما هو أحسن من هذا : إنا أعطيناك الجاهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تطع كل كافر وساحر . فأمر به خالد فضربت عنقه وصلب ، فر به أحد الظرفاء فقال : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، وأنا ضامن ألا تعود .

هكذا كانوا يتندرون بهم ، ويسخرون منهم ، ونحن لا نجد فى عصرنا من يدعى النبوة وإنما نجد من يدعى الألوهية فى الدين وفى غير الدين ، فهل يصلى هؤلاء على عود ؟ !

على العمارى
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمى بأم درمان